الفصل الأول

العزلة والانغلاق

لن تتضح الصورة التي أريد أن استعرضها للتجديد الذي أحدثه التغيير الجمهوري في حياة اليمن واليمنيين دون أن أنقل بأمانة ما كانت البلاد تعيشه قبل هذا التغيير الذي بدونه كان خطر الموت والانقراض يهدد حياة اليمنيين ويمنع عنهم كل فرص للحياة الكريمة. لقد كانت اليمن تعيش وكأنها جزيرة في بحر الظلمات، معزولة عن بعضها البعض، وعن جيرانها وعالمها الأوسع، وكان العيش فيها ورطة لا سبيل للتخفيف من وطأتها إلا بالهرب من الظلم والفقر والجهل والمرض عبر بوابة وحيدة يمسك بها الاستعمار البريطاني في عدن، ويعمل الطغاة الحاكمون على استدامتها بإبقاء البلد متخلفة عاجزة عن بناء نفسها ورفع مكانتها، غير قادرة على كسر سور العزلة والهامشية الذي يلفها ويخنقها. ولن تتضح صورة ما أريد عرضه إلا بإعطاء نبذة موثَّقة قدر الإمكان عن واقع اليمن في تلك الفترة المظلمة، من خلال شهادات عيان لمن زاروا البلاد ووصفوا أحوالها وبؤسها وتخلفها ومعاناتها.

فقد بدأت مملكة اليمن استقلالها بعد هزيمة الأتراك في الحرب العالمية الثانية وورثت بعض المنجزات الحضارية الأولية التي كان بالإمكان أن تستند إليها وتبني تجربة جديدة تبدأ بها مسيرة العمران والتنمية في كل المجالات، لكنها فعلت العكس تماما. فعلى سبيل المثال، ما دمنا نتحدث عن الثقافة، ورثت اليمن من الأتراك العثمانيين، عند خروجهم من اليمن سنة 1918، فيما ورثت من مظاهر حديثة كخطوط البرق ومصحات لعلاج المرضى، مطبعة جلبوها إلى اليمن سنة 1872 ليطبعوا بها أوراقهم الرسمية في صنعاء، وصحيفة رسمية تصدر بالعربية والتركية. فانتقلت هذه المطبعة إلى سلطة الإمام يحيى وكان يمكن أن تكون أساسا تستفيد منه دولة الاستقلال اليمني وتبني عليه وتطوره ومن ثم تبدأ في تطوير الصحافة والطباعة وصناعة الكتاب. لكن على مدى تسعين سنة لم تعرف اليمن غير هذه المطبعة البدائية التي وصلت إليها في القرن التاسع عشر، وظلت تدار وترص حروفها باليد دون أي

تطوير حتى قيام الجمهورية سنة 1962[2]. وقد ظلت تُصدِر صحيفة صفراء يتيمة هي صحيفة "الإيمان" بشكلها المتخلف ومضمونها المكرَّس لمدح الطغاة والدفاع عن نظام حكمهم باعتبارها الصحيفة الرسمية حتى قيام الجمهورية. كما كانت المطبعة والصحيفة عنوانا للعزلة المفروضة على البلاد، تعكسان الانغلاق الثقافي وتعبِّران عنه وتكرِّسانه. وحتى لو أضيفت في سنة 1959، أي قبل قيام الجمهورية بثلاث سنوات، مطبعة أخرى متواضعة في تعز طبعت صحيفتي سبأ والنصر، المخصصتين للدفاع عن النظام وتكريس تخلفه واستبداده، كان النظام من الجمود والغربة عن عالمه بحيث توطَّدَت العزلة الثقافية السائدة في البلاد. لأن الانغلاق كان سياسة رسمية لنظام لم يعد قابلا للإصلاح وأصبح من الضروري تغييره من جذوره وفتح الأبواب لرياح الحرية والتفاعل الحي مع العالم من حول اليمن.

فلممارسة الرقابة الشديدة على هذه المطبعة، أوكل الإمام المسئولية المباشرة عليها لابنه عبدالله بن الإمام يحيى، الوزير الشكلي للمعارف الغائبة، لكنها ظلت في الواقع تحت السلطة المباشرة للإمام يحيى نفسه الذي كان يدير بنفسه شخصيا جميع أمور مملكته بصورة فردية أصابت الإدارة بالشلل وجردتها من أية فعالية ومنعت ظهور مؤسسات إدارية وغير إدارية، ومنها منع القيام بأي نشاط ثقافي يتمتع بأي هامش للتفتُّح والإنتاج والإبداع.

فأي هامش ثقافي يمكن أن يتوافر تحت الرقابة الصارمة لإمام يعيش عقليا وثقافيا في العصور الماضية ويرتاب من كل تجديد أو تطوُّر؟

ولإعطاء أمثلة على أن العزلة والانغلاق كانتا سياسة رسمية نابعة من طبيعة النظام سنورد شهادات موثَّقة لشهود عيان ينقلون تفاصيل الحياة داخل مملكة الظلام وطبيعة علاقتها بالعالم من حولها وما ذا كان العالم يعرف عنها وكيف ينظر الناس إليها خارج سور العزلة المفروضة على البلاد؟

يروي الرحَّالة أمين الريحاني، اللبناني الأمريكي، الذي زار شبه الجزيرة العربية وكتب عنها كتابه "ملوك العرب"، ما سمعه عن اليمن وهو بعد في نيويورك عندما بدأ البحث عن معلومات عن البلد الذي ينوي زيارته، فيقول: إنه التقى في نيويورك بيمني (لعله أحد المغتربين اليمنيين الأول) وسأله عن بلاد اليمن فأجاب قائلا إن أهل اليمن دائما في حرب، حاربوا

[2] سيد مصطفى سالم، مجلة الحكمة اليمانية وحركة الإصلاح في اليمن، ص. 19.

الأتراك وتحاربت القبائل فيما بينها، وخاضت حربا مع الإدريسي، "ويحارب بعضنا بعضا". وعن دخول الأجانب إلى اليمن يقول: "لا يؤذن لهم لا بالذهاب ولا بالإقامة هناك". وسأله الريحاني: وإذا جاءكم الأجنبي؟ أجاب: "والله نذبحه".

ومع ذلك سافر الريحاني وصمم على زيارة اليمن. وحين وصل إلى مصر رُوِّع بما سمع عن اليمن. فحين قال لأحد الأدباء الشاميين الذي كان يقيم في مصر، إنه مسافر إلى اليمن قال له: "غير ممكن... قلت ولما ذا؟ هل من خوف على حياتي؟ فأجابني ثانية مستحيل، غير ممكن. ثم صرخ بما فيه بعض الاطمئنان إذ قال: لا يأذن لك أولياء الأمر... الانجليز... هم في عدن يوصِدون الأبواب.... في اليمن حرب اليوم والأخطار كثيرة"[3].

وبصرف النظر عما إذا كان ما سمعه الريحاني عن اليمن في الولايات المتحدة الأمريكية وفي مصر صحيحا أم غير صحيح، فإنه في كل الأحوال ينقل نظرة الناس إلى اليمن، هذا إن سمعوا بهذا البلد، وإحساسهم بعزلته وغربته عن عالمه وغرابة ظروفه السياسية والاجتماعية وعيشه خارج العصر الحديث.

وحين وصل الريحاني إلى مستعمرة عدن واجه نفس التحذيرات من الذهاب إلى مملكة الظلام. فما أن وصل إلى الميناء حتى قابله ضابط انجليزي احتفظ بجواز سفره وجواز سفر مرافقه[4]. ووعد أن يردهما خلال اليوم نفسه. لكنه لم يرجعهما إلا بعد متابعات طويلة وتدخل من القنصل الأمريكي باعتبار الريحاني يحمل جوازا أمريكيا. وحتى القنصل الأمريكي في عدن حين علم بأن الريحاني يريد الذهاب إلى اليمن حذَّره بالقول: "قد يُقطع رأسك ولا أحد يسأل عنك. أنصحك لا تسافر" إذا حصلت على إذن من الانجليز بالسفر. "في البلاد حرب اليوم، والطرق غير آمنة، وأنا لا أقدر أحميك"[5]. واستعان الريحاني بالقنصل الأمريكي للكتابة إلى الحاكم البريطاني لطلب مقابلته والحديث عن استعادة الجوازين، لكن الجواب تأخر. وبعد وساطة قَبِل الحاكم استقبال الريحاني ومعه قنصل أمريكا وتناقش معه وعرف أنه شاعر ومثقف، وتحدث معه عن شعر عمر الخيام وأبي العلاء المعري الذي كان الحاكم قد قرأ عنهما

---

[3] أمين الريحاني، ملوك العرب، ص. 77 . 78.

[4] رافقه في هذه الرحلة الشاقة إلى اليمن صديقه قسطنطين يِنّي، أحد القوميين العرب الذين التحقوا بالشريف حسين، ملك الحجاز على أمل توحيد العرب وإقامة دولتهم القومية.

[5] أمين الريحاني، نفسه، ص. 79 . 80.

بين ما قرأ من التراث العربي الإسلامي. ومع ذلك لم يقتنع بإعادة الجواز، بل حذره من السفر إلى اليمن بالقول "في السفر إلى اليمن خطر أكيد... ونحن لا نستطيع أن نحميك" فيما تجاوز حدود المحميات البريطانية. ولم يسمحوا له بزيارة سلطان لحج إلا بإذن من البريطانيين بشرط عدم اجتياز أرض السلطنة إلى خارجها. وفي انتظار الحصول على إذن البريطانيين بالسفر إلى صنعاء طلب من ممثل الإمام في عدن أن يأذن له بالسفر فكتب إلى مولاه في صنعاء يطلب منه شخصيا الإذن بوصول الريحاني ورفيقه. ففي نظام فردي مطلق كذلك النظام السائد في مملكة الظلام لا يستطيع أي شخص غير المسئول الأول في المملكة أن يسمح بوصوله. وفي الوقت نفسه ذهب ممثل الإمام في عدن إلى ممثل الانجليز ليستشيره في أمر الإذن بسفر الريحاني، لأنه لا يُقدِم على عمل لا يقبله البريطانيون.

وأخيرا أصدر الحاكم البريطاني لعدن الإذن المنتظر في رسالة من مساعد الحاكم البريطاني يقول فيها إن "البلاد في اضطراب وإن السفر فيها خطر على المسيحيين، وإنه إذا كان قد سأل السلطان (سلطان لحج) أن يرفقك بالحرس إلى الحدود، فلا هو ولا السلطان يضمنان لكم السلامة. وليكن معلوما لديكم أن الحاكم غير مسئول البتة عما يحدث لكم فيما دون حدود المقاطعة المحمية"[6].

لقد سردت هذه الملابسات التي حدثت لشخصية عربية أمريكية مزودة برسالة توصية إلى قنصل أمريكا في عدن، تطلب رسميا مساعدة مواطن أمريكي وتذليل الصعاب التي يواجِه، لتوضيح فكرة واحدة أساسية وهي إلى أي حد يتحكم البريطانيون في الدخول إلى اليمن والخروج منها وفي تجارتها تصديرا واستيرادا. وهو ما يدحض دعوى النظام الحاكم في مملكة الظلام من أنه يغلق اليمن حفاظا على استقلالها وسيادتها ومنع أن تتعرض للمساس من القوى الغربية. فما ذا يبقى من الاستقلال إذا كان البريطانيون يحتلون جزءًا من البلاد ويغلقون الباب من عدن في وجه كل شيء، ولا يدخل إلا من يوافقون على دخوله، ولا يخرج أحد حتى وفود النظام الرسمية إلا بعد الاتصال بهم وتأمين موافقتهم على خروجه. وإذا كانت هذه التعقيدات قد حدثت لمواطن دولة كبيرة مثل الولايات المتحدة الأمريكية التي خرجت من الحرب العالمية الأولى منتصرة، فما ذا سيكون الحال مع غيره. بل إن دعاوى الاستقلال

[6] نفسه، ص. 80 . 87.

تسقط عند أول اختبار عملي. فحين أرسل الإمام أول بعثة دراسية عسكرية إلى العراق في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين تولت السلطات البريطانية في مستعمرة عدن إصدار جوازات مرور للطلبة اليمنيين "لأن المملكة المتوكلية لم يكن فيها وزارة للخارجية ولا تعرف الجوازات"[7]. فهل هذا استقلال؟

ويشكو محسن العيني في كتابه "الرائد" الصادر سنة 1957 بمرارة من تجاهل العرب لمعاناة اليمنيين وقبولهم ادعاء النظام بأنه يحافظ على الاستقلال اليمني الذي كان مجرد قناع لعزل اليمن وهيمنة القوى التقليدية المتخلفة واستدامة الاستبداد وعدم التنمية والحرمان من جميع أنواع الخدمات التعليمية والصحية وإبقاء اليمن في سجن موصد الأبواب عن عالمه وعما يدور في هذا العالم من تطورات ومن تحسين لظروف معيشة الناس. يقول: "ورغم أن حكام اليمن ظلوا طوال أربعين عاما قابعين في جنوب جزيرة العرب معتزلين بشعبهم عن الأمة العربية عزلة قاسية مريبة، فإن مهمة العرب لم تزد على مجرد الاغتباط باستقلال اليمن ولم تتطور بتطور الوعي العربي والاتجاهات الحديثة نحو تفسير الاستقلال وفهمه. لقد نشأت في البلاد العربية في مطلع القرن العشرين خرافة ... أن العرب أصبحوا يعللون كل النكبات في اليمن وكل الجهل والفقر... وكل عملية من عمليات الإبادة لعرب اليمن بأنها محافظة على استقلال اليمن وخوفا عليه من المستعمرين الطامعين... وكأن الأمة العربية كلها قد أجمعت على إباحة الشعب العربي في اليمن لفرد واحد أو لعائلة واحدة تنكل به وتطحنه طحنا وتلغيه من دنيا العروبة بحجة أن اليمن دولة مستقلة"[8].

وهكذا فرَّغ النظام الاستبدادي الاستقلال من مضمونه باعتباره وسيلة لإطلاق طاقات الشعب في البناء والتطوير وتحسين مستوى معيشة السكان، وحوَّله إلى سجن كبير مظلم، وقيد على تحرر الشعب من الفقر والجهل والمرض. فأية قيمة لاستقلال يغلق حياة الناس على البؤس ويفرض عليهم العزلة والهامشية ونقص القيمة، ويقودهم نحو الانقراض؟

---

[7] أحمد المروني، الخروج من النفق المظلم، ص. 43.

[8] محسن العيني، معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن، ص. 49 . 50.

كما كان البريطانيون يستخدمون بؤس أوضاع اليمن وفقر سكانها وحرمانهم من التعليم والرعاية الصحية وفرض الجبايات الجائرة عليهم وسيلة لتنفير سكان مستعمرة عدن والمحميات من التفكير في الاستقلال وفي الاتحاد بأهلهم في مملكة الظلام[9].

وحين دخل الريحاني مملكة الظلام التقى عالَمان مختلفان تماما، اللبناني الأمريكي القادم من نيويورك وواشنطن من جهة، ومملكة معزولة غريبة عن عصرها من جهة أخرى. ولولا أن اللغة العربية كانت وسيلة التفاهم بينهما لاستحال عليهما التعارف والتبادل. فهو يصف الغرفة التي استقبله فيها أحد المقربين من الإمام وأحد قادة جنده الكبار فيقول: "فإذا نحن في غرفة صغيرة نوافذها مقفلة إلا واحدة منها، وهواؤها قد امتزج بدخان كثيف فاسد، وأرضها مفروشة بالقش والحشيش. وإلى جانب الحيطان الأربعة عمائم بيضاء كبيرة، أصحابها جالسون على الأرض صفوفا ملزوزة، وكلهم في تلك الساعة يمضغون القات، بل يخزّنون، وفي الزاوية عند منضدة صغيرة، إلى جنبها مداعة، بين أكمة من الأوراق ورزمة من القات، رجل صغير المنكب والعمامة... علي الوزير، أمير جيش الإمام في لواء تعز".

وحين قدَّم إليه رسالة ممثل الإمام في عدن التي تقول إنه السيد أمين الريحاني سأله: أأنت "حسني أم حسيني" (مع أنه مسيحي ماروني)؟ فالوزير ينطلق من خلفية ثقافية تقليدية لا ترى في الناس في أي مكان سيدا سوى إن كان "من البطنين". ولم يجد الريحاني مهربا من هذا السؤال الكمين أمام الجمع المتزمت سوى الإجابة بأنه عربي. فاستغرق الوزير في خطبة فيها مقال لا يناسب المقام عن الذين يفسدون الدين بالبدع ويتقربون من الافرنج ويدنسون النسب النبوي، ويوالون الكفار، مؤكدا أن "الإيمان بالله رأس الفلاح والصلاح، والجهاد في سبيل الله واجب كل مسلم سلم إيمانه"، مختتما حديثه بمهاجمة شريف مكة الذي كان القوميون العرب في المشرق العربي يعوّلون عليه في توحيد العرب وإقامة دولتهم المستقلة عقب هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى وخروجها من التاريخ[10]. وينقل عن عبدالله الوزير (الذي سيصبح سنة **1948** إماما دستوريا)، ممثل الإمام في ذمار، مقالا مشابها لا يناسب المقام أيضا، فيه من التزمت المتشنج ما يكشف العقلية السائدة في تلك الفترة، إلا أنه أضاف إلى ما قال ابن عمه علي الوزير اتهام العرب، كل العرب، بأنهم "كذابون ساقطون

---

[9] نفسه، ص. 56.

[10] أمين الريحاني، نفسه، ص. 98 . 102.

يحبون المال"[11]، قال هذا للريحاني الذي يحمل الجنسية الأمريكية ولكنه يعلن حبه للعرب والتعاطف معهم وهو من كتب منذ وقت مبكر دراسة بعنوان "الحركة العربية الواحدة" أصبحت فيما بعد أساسا فكريا بنت عليه الحركات القومية العربية[12] الداعية لوحدة العرب ونهضتهم.

ولعل في الخرافة التي رواها عسكر الإمام للريحاني التي تقول إنهم يقرأون على الطائرات الإنجليزية المهاجِمة آيات من القرآن فتسقط كالطير المذبوح على الأرض ما يكفي لكشف حقيقة الفارق الحضاري بين العالمين اللذين التقيا في تلك اللحظة.

ومع ذلك فقد تجرأ شخص وشكى سرا من أن الإمام ظالم يرهق الرعية بالضرائب المتعددة، ولا ينصف مواطنيه ولا يحسن السياسة مع الانجليز، ولا يفتح المدارس في البلاد، ولا يعزل الظالمين من ممثليه في المناطق، وأنه بخيل يجبي ولا ينفق على الخدمات، كل هذا يدل على أن روح الرفض والاحتجاج كانت كامنة تحت الغلبة بالقوة والسلاح[13]. كما أن أحد الحراس المكلفين بحراسته في الطريق أوجز له حال اليمن وما يخفي من سخط على النظام بالقول "نحن في اليمن فقراء وحكم الإمام يزيدنا فقرا"[14].

وحتى المسئول المكلف بقيادة عساكر الحراسة من ذمار إلى صنعاء، واندهش لرؤية "الترموس" الذي يحفظ الماء باردا وكأنه اختراع خطير، علامة على العزلة وعدم الاطلاع على ما يحدث في العالم الحديث، لم يلبث أن عبَّر عن معاناته وهو أكثر حظا من العساكر الفقراء بالقول "نحن لا نستخدم عقولنا إلا في الحروب" وعبَّر عن نيته السفر والهجرة بحثا عن فرص للعيش، مضيفا أن أهل اليمن "يظنون أنه ليس خارج بلادهم غير الكفر والكفار"[15].

ويصف رئيس الحرس المرافق له حال اليمن قائلا: " لا يزال أهل اليمن... وحشيين، لا يثق الواحد منهم بأخيه، ولا يركن إليه. حياتهم خوف دائم واضطراب.... هم كالحيوانات البرية يخشون كل من يدنو منهم. وفي اليمن وقد رأيت بعينك الناس كلهم مسلحين، وكلهم

---

[11] نفسه، ص. 111.

[12] عنوان الدراسة التي كتبها الريحاني سنة 1907 The Pan Arab Movement

[13] نفسه، ص. 104.

[14] نفيه، ص. 113.

[15] نفسه، ص. 114.

يقاتلون، ويقتلون لأمر طفيف". إذا اغتصبت حقي ولو كان تافها "أقاتلك عليه، أستل عليك الجنبية، أذبحك. هذه طريقتنا في اليمن. وإذا حدث قتال بين بيتين في هذه القرية مثلا ينضم أهلها وقد انقسموا حزبين إلى المتقاتلين، فتشب في القرية نار الحرب. وعندما تنطفئ يتساءلون وما السبب في القتال بين فلان وفلان؟ يقاتلون أولا ثم يستعلمون. هذه طريقتنا في اليمن. نحارب حتى أهلنا. فإذا كانت هذه حال بعضنا مع بعض فكيف تكون حالنا مع الأجانب؟" وسأل الريحاني هل في اليمن باطنيون (إسماعيليون)؟ وكان الجواب "كانت منهم طائفة فأفنيناهم بالسيف"[16].

ويصف مدينة إب وصفا يصدق على اليمن كلها في تلك الفترة فيقول "ليس في المدينة مدارس غير ما في المساجد لتعليم القرآن، وليس فيها أحد من الأطباء، ولا نقطة ولا حبة من الدواء، ويكثر فيها الجدري والحمى.... وصحة النسل في نقص ظاهر ولا سيما في الأولاد. فإن وفيات الأطفال في اليمن كثيرة.... وأظهر ما فيهم النُّحُول والشحوب وضعف الأعصاب"[17].

ويكفي للدلالة على غربة مملكة الإمام عن عصرها أن الرحلة من عدن إلى صنعاء استغرقت اثني عشر يوما من المشقات، وأنهم قطعوا الطريق داخل المملكة المغلقة على ظهور البغال. ويصف حال صنعاء البائس قائلا: "يشكون قلة المال ووقوف الأشغال وعسر الأحوال، ومنهم من ينسبونها كلها إلى حكم الإمام". ويصف الإمام بأنه "يكثر الضرائب، ويدَّخِر الأموال. فتقل ولا غرو في أيدي الناس فتسبب وقوف الأشغال وعسر الأحول فضلا عما يعتري اليمن دائما من الاضطراب والشقاق والضعف الناشئة كلها عن حروبهم الأهلية فضلا عن العشائر وجميعها مسلحة"[18] وما ينتج عن ذلك من فقر وعدم تنمية "والسبب الأكبر هو الجهل المسلح".

ويصف تخلف الإمام بطريقة غير مباشرة بالقول: إن مجلسه الرسمي ينعقد في ديوان بيته وإنه يستقبل الشاكين تحت شجرة، مثل أي شيخ. وإنه شغوف بالفخفخة الظاهرة، يسير في موكب تحت المظلة يوم الجمعة إلى الجامع الكبير مثل الأئمة قبل قرنين أو ثلاثة قرون

---

[16] نفسه، ص. 116 . 117.

[17] نفسه، ص. 108

[18] نفسه، ص. 125 . 126.

مضت. وإن من شعاراته "الجنة تحت ظل السيوف". ويقول إن الإمام يحيى يتصرف ويعيش كأنه في القرن الثالث الهجري، أي أنه بعيد عن العالم من حوله سادر في عزلته راضٍ بها.

ويعترف بهذه العزلة المفروضة على اليمن زيد الوزير (ابن علي الوزير المذكور آنفا، قائد جيوش الإمام في لواء تعز وأحد أفراد الدائرة الضيقة التي يعتمد الطاغية عليها) حيث يقول: "لقد كانت اليمن في ظل الأتراك، على الأقل، تتصل بالعالم عبر عاصمة الخلافة، وتأتيها الوفود والجنود والقادة العسكريون من كل أصقاع العالم الإسلامي فتتأثر وتؤثر، فجاء الإمام يحيى وتمكَّن بالفعل من عزل اليمن تماما. وعندما نما جيل ما بعد الأتراك وخاصة في الأوساط القبلية لم يكن يعرف عن العالم شيئا. كانت فترة مظلمة حقا انمحت حدود العالم خارج اليمن. وما عدا الأتراك الذين هم في مكان ما من هذا العالم، فقد ظلت ذاكرتهم تختزن صورا لذكريات غائمة تناقلها الخلف عن السلف، وتحوَّرت بفعل الأيام أسماؤها الحقيقية تحورا عجيبا، فكانت (طرابيز الغروب) كما كانوا يسمونها ذكرى للحرب التركية الإيطالية في طرابلس الغرب. وما عدا المدينة ومكة شمالا وعدن جنوبا فإن الشمس تشرق من سهول مأرب لتختفي في بحر الحديدة، ومن أعطي فهما أكثر فإنها تغيب ولا شك في طرابيز الغروب"[19].

وتقدم الطبيبة الفرنسية كلودي فايان، التي أقامت في اليمن في مطلع الخمسينيات، شهادة حيَّة عن واقع الحال في مملكة الظلام مع أنها حاولت في كتابها "كنت طبيبة في اليمن"، الذي سلكت في تأليفه منهج بعض السواح الغربيين في الكتابة عن البلدان الغريبة، أن تكون محايدة وأن تتعامل مع الناس بتعاطف وتفهُّم، فتقول: كان "الناس (خارج اليمن) لا يذكرون اليمن إلا قليلا، وهذا يرجع إلى أنهم لا يعرفون عنها شيئا"[20]. و"من النادر الدخول إلى اليمن (أو الخروج منها) إلا عبر مستعمرة عدن البريطانية. فلا يوجد خط جوي منتظم يمر بالأراضي اليمنية[21]. وإذا مرض الإمام تعطلت المعاملات. وتحكي قصة رجال أعمال أجانب وصلوا باتفاق مع السلطات في مملكة الظلام لعقد اتفاقات تجارية ولكنهم حين وصلوا كان الإمام مريضا فتعطلت أعمالهم. ولم يستطيعوا حتى الخروج من البلاد عبر عدن لأنه لا يوجد

---

[19] زيد الوزير، محاولة لفهم المشكلة اليمنية، ص. 69 . 70.

[20] كلودي فايان، كنت طبيبة في اليمن، ص. 26.

[21] نفسه، ص. 32.

من يأذن لهم بالخروج. واعتبرت الانتقال من مملكة الظلام إلى مستعمرة عدن عودة إلى الحضارة.

ويقول مُحَمَّد سعيد العطار في كتابه "التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن" إنه كانت وراء عزلة اليمن نظرة سياسية للإمام يحيى، الذي كان يفضِّل بقاء بلاده فقيرة بحجة الخوف من قيام الأجانب بالتنقيب عن الثروات الطبيعية[22] والمساعدة في تنمية البلاد، وكان يعتبر التنمية نقيضا للاستقلال الشكلي الذي كان يتحكم فيه البريطانيون من عدن. ولذلك لم يتطور الاقتصاد الوطني وكان الجمود طابعه، وكان التبادل مع العالم الخارجي محدودا عبر عدن مما يسمح للبريطانيين بالتحكم في البلاد وفي تجارتها وفي الدخول إليها والخروج منها. وظلت في عزلة وانغلاق حتى كانت كثيرا ما تشبَّه بالتِبت في عزلتها القديمة[23].

فقد كانت جميع البنيات في اليمن قبل قيام الجمهورية بدائية، والمواصلات قديمة، وجميع طرق البلاد تعود إلى عصور الظلام. وجميع الموانئ لا تتسع لاستقبال السفن[24]. وحتى بعد تشييد الروس لميناء الحديدة سنة **1961** (قبل الجمهورية بسنة واحدة) ظل هذا الميناء مرتبطا بميناء عدن، لأن ليس فيه أرصفة فوق المياه ذات الأعماق الكبيرة لترسو السفن، وإذا رست سفينة في المياه البعيدة تقوم القوارب بنقل البضائع منها ثم يقوم الحمَّالون بنقل البضائع على أكتافهم. وظل ميناء عدن حتى بعد تشييد ميناء الحديدة يحتكر نحو ثمانين في المائة من حركة البضائع.

وتؤكد هذا الحال في الميناء كلودي فايان فتقول إن البواخر لا تستطيع الوصول إلى ميناء الحديدة، "بسبب الصخور المنتشرة على طول الشاطئ، ولكنها تفرغ حمولتها في قوارب صغيرة تقترب بها إلى بعد ثلاثين مترا من الشاطئ، وهنا يتقدم الحمَّالون وينقلون البضائع على أكتافهم ويسيرون بها بأقدامهم بين الماء"[25].

---

[22] محمد سعيد العطار، التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن، ص. 36، وكلودي فايان، نفسه، ص. 27.

[23] العطار، نفسه، ص. 9 . 10.

[24] كلودي فايان، نفسه، ص. 35.

[25] نفسه، ص. 87.

ويؤكد هذا شاهد عيان هو محسن العيني الذي يقول إن الموانئ "كلها غير صالحة لرسو أية سفينة، بل حتى لقوارب الصيد الصغيرة، وتجارة اليمن كلها عن طريق عدن" كما يضيف: وليس في اليمن أي بنك مركزي أو محلي، ولا وكالة لأي بنك أجنبي (باستثناء البنك الأهلي السعودي الذي فتح مؤخرا وكالات صغيرة في الحديدة وصنعاء وتعز لنقل تحويلات المغتربين)، ولا لأية مؤسسة مصرفية"[26]. ولم تكن هناك صناعة في تلك الأيام.

وعلى الرغم من إنشاء السوفييت ميناء الحديدة، ظل هذا الميناء بالنسبة لشركات الملاحة غير قابل للاستعمال لأسباب فنية واقتصادية مثل عدم توفر إنارة القناة وفقا للمعايير الدولية، وعدم إمكان تفريغ البضائع في الليل أو شحنها، وعدم توافر خدمات التزود بالمواد الغذائية والماء العذب. وكذلك ضآلة حجم الواردات والصادرات وارتفاع تكاليف الرسو.

وتشير كلودي فايان، إلى أن الحياة في اليمن صعبة، فليس هناك أية وسائل للراحة ولا وجود للحرية، والوسائل المهنية الحديثة غير متوافرة[27].

وحين أخبرت أكبر التجار الأجانب في عدن بأنها مسافرة إلى اليمن حذرها من السفر إليها قائلا: "لو كنتِ ابنتي لمنعتك من السفر، ولو كنتِ صديقتي لتوسلت إليك أن تعدلي عنه... ولهذا أكتفي بهذه النصيحة البسيطة، لا تسافري، ستندمين إذا فعلت"[28]. ولم تكن في اليمن عملة محلية ولا أي بنك. والعملة المستخدمة قطعة فضية نمساوية ثقيلة يصعب حملها ونقلها[29]. وتصف الصعوبات الكثيرة التي مرت بها في سفرها بسيارة نقل من عدن إلى تعز ووعورة الطريق، وتعطل السيارة أكثر من مرة وارتعاشاتها على طريق وعر تحتاج فيه السيارة في كل مرة إلى أن يقفز مساعد السائق ليضع بعض الأحجار لمنعها من الانزلاق إلى الهاوية. لقد كانت رحلة مخيفة حقا استغرقت وقتا طويلا بالنظر إلى قصر المسافة بين المدينتين[30]. وعند الوصول إلى تعز كان عليها أن تطلب الإذن بمباشرة العمل أو بالتحرك في المدينة من الإمام شخصيا وتصفه بأنه ملك يعيش في القرون الوسطى. وتصف الحياة في "دار الضيافة" التي

---

[26] محسن العيني، معارك ومؤامرات ضد قضية اليمن، ص. 28.

[27] كلودي فايان، نفسه، ص. 27.

[28] نفسه، ص. 36.

[29] نفسه، ص. 38.

[30] نفسه، ص. 50 . 51.

نزلت فيها باعتبارها فندق المدينة الوحيد بالبطالة والسلبية والجمود وعدم الحركة. "ولا يقوم أحد هنا بأي عمل طوال النهار".[31]

وتستنتج من معايشتها للناس والاحتكاك بهم وتطبيبهم أن "الانسان في اليمن لا يكاد يشعر بوجود العالم الخارجي". ولا وجود للفنون، "والآلات الموسيقية محرَّمة"[32]. وشاهدت في واجهة مقر الإمام فونوغراف محطَّم معروض للعبرة والتعزير منذ ثلاث سنوات لعقاب من تسول له نفسه الاستماع للموسيقى[33].

ولا يذهب الإمام إلى مقر الحكومة التي يرأسها إلا للاستقبال الرسمي. وتتم مقابلاته العادية في بيته مثل أي شيخ أو وجيه. "ويظل جالسا حتى يستطيع القادم أن يقبِّل باطن قدميه". وينظر الإمام في جميع الموضوعات على الإطلاق. "من أهم المسائل وأخطرها إلى أقلها شأنا وأتفهها". وتضيف أن "الإمام شخصيا هو من يقرر إذا كان معلم في أحد الأقاليم النائية البعيدة بحاجة إلى عشر محابر" مثلا. ويصاب الإنسان بالذهول "حين يعلم أن رئيس دولة يتدخل في هذه التوافه.... إنه أمر مُفزِع". ومع أنه قد عيَّن وزراء شكليين أغلبهم من أسرته فإنهم لا يتمتعون بأية سلطة[34].

وقد استغرق سفر الطبيبة الفرنسية بين تعز والحديدة يومين كاملين على طريق وعر وصعب ومرهق مع أن المسافة نحو مئتين وستين كيلومترا. وتصف الغرفة التي نزلت بها في زبيد بأنها مثل تلك التي نزل بها كارستن نيبور قبل نحو مئتي سنة، لم تتغير.

وتتحدث عن السكان، وبخاصة في المناطق الوخيمة فتقول إنهم لا يتمتعون بأية رعاية صحية من أي نوع: "أدركت حالة السكان المحزنة المبكية. فقاماتهم قصيرة. وبطونهم منتفخة. وأجسادهم ليست إلا هيكلا عظميا"[35].

أما بالنسبة لأكبر جزء من شبكة الطرق فقد كانت مسالك لقوافل الإبل، وحركة المرور عليها غير كثيفة.

---

[31] نفسه، ص. 57 . 58.

[32] نفسه، ص. 61.

[33] نفسه، ص. 81

[34] نفسه، ص. 62 . 64.

[35] نفسه، ص. 94.

ومع أنه كانت هناك طائرتان اشتراهما الإمام، ظلتا تحت إمرته المباشرة لا يصعد أحد إلى متنهما إلا بأمر منه. ثم باعهما للقطاع الخاص في آخر سنة قبل الجمهورية لتقتصرا على مجرد ربط اعتيادي بعدن، وربط أسبوعي بأديس أبابا وجيبوتي من تعز وعدن.

وورثت البلاد المنشآت التركية الخاصة بالبرق ولم تضف إليها شيئا. ونشأت إذاعة محدودة في 1957 لكن مدى إرسالها كان محدودا ووجود أجهزة الراديو كان أيضا محدودا. أما خطوط التلفون التي بدأت في 1957 في تعز وصنعاء والحديدة، فقد كانت محدودة جدا واقتصرت في الغالب على بعض المسئولين. أما بقية الشعب في المدن والأرياف فلم يكن يخطر بباله استعمال التلفون. ومما له دلالة أن الضباط الأحرار لم يفكروا في قطع خطوط التلفون يوم القيام بالثورة، لأنهم لم يتعاملوا معها قبل ذلك، مما سمح للإمام البدر بمواصلة الاتصال في حين كانت الإذاعة تعلن أنه مات تحت أنقاض قصره.

وكانت وفيات المواليد مرتفعة بسبب انعدام الرعاية الطبية وبخاصة بالنسبة للأمومة والطفولة، وبسبب فقر التغذية والفقر العام. وحين وصلت الطبيبة الفرنسية صنعاء وجدتها كما وصفها نيبور[36] قبل مئتي سنة كأنها تجمدت دون أن يطرأ عليها أي تغيير، غارقة في العصور القديمة لا تتحرك. وتصف انعدام الخدمات الطبية في المدينة. وإذا كانت قد وجدت جهازا وحيدا لفحص الدم لم يكن هناك أي فني مخبري لاستخدامه، ومن أجل أن تستخدمه كان عليها الحصول على أمر من الإمام وكأنه قنبلة نووية. وكانت حياة المدينة كلها غارقة في ظلام القرون ولا علاقة لها بعصرها. والبطالة شاملة، وحتى الموظفين الحكوميين لا يجدون ما يفعلون. والقات غطاء لهذه البطالة ولانعدام العمل والإنتاج.

وتشرح كيف تموت الحياة في مدينة صنعاء بعد غروب الشمس وحلول الظلام، لا مرور لأية سيارة، ولا لعربات تجرها الأحصنة. ولا يُسمع سوى أصوات الكلاب وأصوات أقدام المارين القليلين على الأرض، وتصاب الحياة بشلل تام حتى الصباح. ويعيش الناس في عزلة لا يعرفون شيئا عن عالمهم وما يدور فيه من أحداث ومن تطورات، كأنهم يعيشون في كوكب معزول خارج الكرة الأرضية. وتنتشر الأمراض ولا رعاية صحية، والأدوية نادرة، ويعاني الأطفال من الأمراض دون توافر علاجات لها ولا لقاحات لتحصينهم. وبيع العبيد

[36] نفسه، ص. 116.

والإماء شائع. وتصف حالات الفساد الأخلاقي للأمراء رغم التشدد الديني الظاهر وحياة التزمت الشائعة[37].

وتضيف: "لقد شعرت أني في أرض ما زالت تعيش في الحروب. إن كل شيء فيها يعيد للأذهان القرون الوسطى المظلمة"[38].

وتصف العساكر بالقول "حياتهم شاقة عسيرة، ومرتباتهم لا تكاد تسد نفقات طعامهم وثيابهم. وهم يتوجعون من الحصار المضروب عليهم، ومن أنهم لا يعرفون ما يجري في العالم". وتتنبَّأ بأنه "إذا قُدِّر لليمن أن تتغير فسيكونون هم الذين سيغيرونها"[39].

وقد كثر المهاجرون من اليمن للبحث عن فرص عمل لكسب العيش، وبسبب بؤس الأوضاع المحلية، وغلبة الاستبداد وروح الاستغلال الفاحش، ولأسباب سياسية أيضا.

ويصف من خرجوا من سجن مملكة الظلام من طلبة البعثات النادرة المسافرة إلى الخارج كيف كان خروجهم من اليمن عملية تمدين كاملة في كل شيء، من الملبس إلى المأكل والمشرب والثقافة والصلة بوسائل العصر من صحافة وكتاب وسينما وراديو وغيرها. وكيف اندهشوا وانبهروا باكتشاف العالم خارج مملكة الظلام[40]، وهو ما أطلق عليه أحمد المروني "الخروج من النفق المظلم".

---

[37] نفسه، ص. 181 . 185.

[38] نفسه، ص. 204.

[39] نفسه، ص. 149.

[40] انظر مثلا أحمد المروني، الخروج من النفق المظلم، ص. 40 . 41

تقليدية الأدب

ينقل العطار عن طه حسين في كتابه "الحياة الأدبية في شبه جزيرة العرب" قوله: لم يحدث أي تجديد من شأنه أن يغير مجرى الحياة الأدبية التقليدية التي لا زالت محافظة على ما كان لها من شكل ومضمون منذ قرون، ولا نعثر اليوم (في اليمن) على كُتَّاب وشعراء لهم قيمة كبيرة ولا يتعدى الأدب نظم أشعار لتمجيد الإمام وتملُّقه. والأبواب موصدَة أمام التغيير. ولا يوجد سوى مخطوطات، أما المطبوعات فنادرة.

ويضيف البردوني "إن بعض رجال تلك الفترة لم يفهموا أسلوب طه حسين والعقاد لمغايرتهما بعض الشيء لأساليب أحمد بن يحيى المرتضى والمسعودي والجاحظ، بل إن بعض نابهي تلك الفترة استغربوا (أحمد) شوقي، حتى أن علي عقبات كان يسخر من أشعار شوقي ويفضل عليه أي شعر قديم أو أي نثر قديم كمقامات الحريري، وأشعار البهاء زهير، مع أن شعر شوقي كان قليل الاختلاف عن شعر القرن الرابع الهجري"[41].

وحتى الكتب التي تسربت في تلك الفترة من الكتابات الحديثة لم تكن تحرك الفكر إلا باعتبارها تكتب بأسلوب نثري وتحليلي غير تقليدي مثل "حياة مُحَمَّد" لمحمد حسين هيكل، وكتاب "وحي القلم" لمصطفى صادق الرافعي، الذي لا يحمل، كما يقول البردوني، أي نفحة معاصرة، وإن تسربت بعض الكتب المهمة ذات التأثير السياسي مثل "الانقلاب العثماني" لجرجي زيدان. ويرى أن ليس في الكتب التي تسربت ما يتسم بالمعاصرة أو يركز على موضوع العصر. ومثلها المجلات التي منها "الرسالة" و"المقتطف" فإنها "خالصة الأدبية، وأغلب أدبياتها رومنتيكي غير ثوري وكتابات بلاغية، لأن الفترة إلى آخر الأربعينات (في الثقافة العربية خارج اليمن) كان يغلب على ثقافتها إحياء ثقافة الماضي ومحاكاتها"[42]. ومع ذلك، فإن تسربها إلى أيدي الشباب المتطلع من الأدباء والشعراء اليمنيين في تلك الفترة المظلمة

---

[41] عبدالله البردوني، اليمن الجمهوري، ص. 348.

[42] نفسه، ص. 348 . 349.

المغرقة في تقليديتها وانغلاقها قد كان أحد بوادر التغيير في النثر الأدبي وفي الشعر وإن كان بعض من قرأوها لم يستوعبوا ما وراءها من ثقافة.

وكان العِلم السائد عند التقليديين قراءة "شرح الأزهار" في الفقه لأحمد بن يحيى المرتضى، والإحاطة بكل ألغاز النحو في كتبه الصفراء، وفهم الينابيع في الأصول، وما أشبه ذلك[43].

ويذكر أحمد المروني من الكتب التي تسربت إلى مملكة "النفق المظلم"، الذي شكلته مملكة الظلام "تحت راية القرآن" لمصطفى صادق الرافعي، ومجلدين من مجلة "الرسالة" الأدبية، و"من وحي القلم" للرافعي أيضا و"حديث القمر" و"أوراق الورد" له أيضا. كما طالع "فجر الإسلام" لأحمد أمين، و"على هامش السيرة" لطه حسين، و"دمعة وابتسامة" لجبران خليل جبران، وسلسلة الروايات التاريخية لجرجي زيدان و"العرب قبل الإسلام" له أيضا، و"العروة الوثقى" لجمال الدين الأفغاني ومُحَمَّد عبده. وفي الشعر قرأ "ديوان إسماعيل باشا صبري" وديوان أحمد شوقي، وتأثر بكتابات أحمد حسن الزيات وشعر حافظ إبراهيم.

أما أحمد المعلمي فيشير إلى أن دراسة الخاصة كانت تقتصر على درس الفقه والحديث والنحو، وأن الشعر في تلك الفترة المظلمة كان لا يخرج عن المدح أو الرثاء أو الذم[44].

ويضيف الدكتور المقالح بعدا آخر غالبا ما يكون منسيا في الحديث عن العزلة وعن التخلف الثقافي يتعلق بالمرأة بعد قيام الجمهورية فيقول إن كل شيء في اليمن كان يبدو "كأنه عمليا وواقعيا يبدأ من الصفر، لا سيما ما يتعلق منه بالظهور الإبداعي أو النقدي المتأخرَين للمرأة، هذا الكائن المظلوم الذي كان غائبا أو بالأصح مغيبا عن الحياة العامة... فالمرأة المبدِعة تبدأ من الصفر، والمرأة الناقدة تبدأ كذلك من الصفر، والمرأة الباحثة والمدرِّسة والإدارية والطبيبة كلهن يبدأن من الصفر، وأحيانا مما هو أقل من الصفر..."[45].

ويتذكر البردوني من الكتب السياسية الثورية التي كانت تتسرب سرا عبر مستعمرة عدن إلى تعز وتُهرَّب منها إلى صنعاء وتوزع في منتهى السرية ويتم تناقلها من يد إلى أخرى

---

[43] محمد الفسيِّل في من سجن حجة، ص. 52.

[44] أحمد المعلمي، نفسه، ص. 118.

[45] انظر مقدمة المقالح لكتاب وهبية صبرة "البنية الروائية في يموتون غرباء لمحمد عبدالولي"، ص. 3.

ويقرأ النسخة الواحدة أكثر من شخص، "الميثاق الوطني" المصري، وترجمات "عاصفة على السكر" حول ثورة كوبا و"عارنا في الجزائر" الذي يدين ممارسات الاستعمار الفرنسي في الجزائر لجان بول سارتر، و"باسم الحرية" للزعيم الغاني الإفريقي كوامي نيكروما[46]، لكن البردوني يشير إلى أن بعض الكتب كانت معقدة وترجمتها غير مفهومة إلى حد بعيد.

وقد يكون من المفيد إيراد نماذج من النثر التقليدي الذي كان سائدا رسميا في مملكة الظلام. فعلى سبيل المثال يقول ممثل الإمام في عدن في رسالة إلى مولاه: "أمد الله مولانا أمير المؤمنين، والحجة على الخلق أجمعين، المتوكل على الله رب العالمين، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته يردد في كل وقت وحين. وبعد فصدورها للسلام، مقبِّلة بواطن الأكف والأقدام، ..."[47]. فإذا كانت هذه كتابة شخص يقول الريحاني إنه يستطيع في عدن الحصول على الصحف والمجلات العربية الصادرة في القاهرة وبيروت وغيرها، وبأنه رأى بعضها عنده[48]، فكيف بمن يعيشون معزولين داخل مملكة الظلام لا يصل إلى أيديهم سوى النصوص الصفراء القديمة.

ومن المؤرخ عبدالواسع بن يحيى الواسعي نقتبس نصين من النثر التقليدي الرسمي والمؤيد للنظام مع أنه خرج من اليمن وزار عددا من البلاد العربية منها سوريا ومصر، لكنه كما يبدو حافظ على ثقافته التقليدية، وبخاصة السياسية، حيث يقول "الحمد لله الذي خص قطر اليمن الميمون بالإيمان دون سائر الأقطار. فالايمان يمان والحكمة يمانية يقول المصطفى المختار، وجلل هذا القطر بالشرف المنيف والكرم المدرار، وفضل أهله بالإيمان وملوكهم بالعدل على سائر الأمصار. سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء ويختار. أحمده أن جعلني من أهله، وأسأله المزيد من فضله في جميع الأمصار"[49]. فإلى جانب حرص المؤلف على السجع وسياق اللغة التقليدية الموروثة، لا يجد ما يمتاز به اليمن عن سائر أمم الأرض سوى الإيمان ولا يرى أنها حرمت من الصناعة والزراعة المتطورة والتعليم والصحة، ولا يلاحظ أن الفقر عاما والأمية شائعة، والأمراض تفتك بالسكان دون أو يجدوا طبيبا واحدا أو حتى ممرضة

---

[46] عبدالله البردوني، اليمن الجمهوري، ص. 439.

[47] أمين الريحاني، نفسه، ص. 89.

[48] نفسه، ص. 84.

[49] عبدالواسع الواسعي، تاريخ اليمن، ص. 7.

تساعدهم على تحمل معاناتهم، ولا يرى العزلة والانغلاق والضرائب الجائرة التي تُنتزَع من فقراء يحتاجون إلى لقمة العيش ويضطر كثير منهم إلى الهجرة والتشرد في آفاق الأرض بحثا عن عيش لا يتوفر في بلاد تطردهم بجورها وتخلفها وإهمالها لمصالحهم.

ومن الأمثلة على كتابة التاريخ بما يناسب الحاكم الطاغية قوله عن الإمام: "ومن كمال همته وسمو سياسته اهتمامه بالاطلاع على أخبار العالم... وفي كل صباح يجلس الإمام بنفسه في ساحة قصره دار السعادة (لا يقول إن هذا المبنى كان مستشفى في أيام الأتراك حوله الإمام إلى قصر لسكنه) ليسمع بنفسه شكايا الناس، ويصل إليه العاجز والضعيف (كيف يصل العاجز والضعيف من أنحاء البلاد ولا توجد مواصلات تيسر الانتقال، والطرقات وعرة ومتباعدة، والناس فقراء لا يملكون ما يساعدهم على التنقل إلا إذا كان الإمام عاقل حارة وليس ملكا على بلاد واسعة؟) والمرأة والصبي، واعيا صابرا طلق المحيا، عطوفا شغوفا متواضعا. وهذا هو عين رغبته في تعميم العدل والإنصاف. وإذا جاء وقت الظهر خرج ومعه بعض الجنود وطائفة من الناس، ويمشي ولا يزال يسمع الشكاوى ويكلمه هذا، وتارة يكلم هذا إلى أن يصل المصلى، وفي حالة وضوئه وبعد وقبل الصلاة، لا تزال تلك حالته في سماع الشكاوى. وبعد الصلاة يرجع إلى قصره راكبا والموكب أمامه، وتدق الطبول والطيلسان أمامه والعساكر ينشدون الزامل المعروف في اليمن... وبعد الغداء يخرج إلى الديوان (مقيل القات) ويجتمع إليه كتابه، ثم يأخذ كتابا للمطالعة، ثم ينظر في الشكايا والجوابات التي ترد إليه من جميع الجهات، ثم ينظر الأوراق واحدة واحدة، صغيره وجليله، ويظل هكذا إلى أن يصلي العشائين ثم يرجع وكُتَّابه معه إلى طائفة من الليل"[50].

وحتى دخول الصحافة لم يغير شيئا كثيرا من هذا الحال الثقافي البائس. فإذا كانت مجلة "الحكمة اليمانية" قد حاولت بقدر ما تستطيع أن تطرق الجدار السميك المحيط بالواقع اليمني في حدود ما سمح لها النظام وما استطاعت التلميح إليه، فإن صحيفة الإيمان، التي كانت تمثل بحق الصحافة الرسمية، ظلت "تسير على وتيرة واحدة، وتحافظ على أسلوب تقليدي جامد يشبه الإكليشات المحفوظة، وتدور في فلك الدولة – أو بالأحرى الإمام يحيى – ولا تحيد عنه. فقد كانت تبدأ بمقالة طويلة... سواء كان موقفا أو قرارا للدولة، أو حديثا

[50] نفسه، ص. 129 . 130.

عن مناسبة أو عيد ديني، ويتلو هذا فيض من الأخبار الداخلية التي تدور حول مقابلات الإمام وأبنائه... وتنقلاتهم، وتمنيات كبار وصغار الموظفين على السواء، أو حتى استئذان هؤلاء للحصول على إجازات قصيرة. وكان الجانب الأدبي... يتمثل في القصائد الطوال التي تلقى في مدح الإمام وأبنائه، أو تكون بمناسبة دينية أو وطنية معينة، أو رثاء لإحدى الشخصيات الكبيرة، مع الاهتمام بجانب المدح"[51].

ولذلك ظلت الحركة الثقافية راكدة ركود الحياة العامة كلها في مملكة "النفق المظلم". وكانت الكتب الجديدة تهرب كما تهرب المخدرات، ويتم تداولها سرا. وأدى هذا الوضع المتخلف البائس إلى أن أصبح الهرب من مملكتها فوزا عظيما من حيث التملص من وطأة الظلم والضرائب الجائرة وانعدام التعليم والرعاية الصحية والحصول على فرص عمل توفر ولو الحد الأدنى من العيش الكريم. وكان هذا عامل تفتيت للكيان الوطني يجعل سكان مستعمرة عدن ومحمياتها يهربون من الانتماء إلى مملكة الطاعون التي تعمل كل شيء لتنفير سكانها، فما الذي يجعل من يقع خارج كابوسها يطمح لإلقاء نفسه في الهاوية؟

فقد كان من "أبشع نتائج الإمامة هو قتلها الإحساس بوطأة الوجود الاستعماري في جنوب الوطن في نفوس أبناء الشمال، الذين قاسوا منه ألوانا من العذاب ترجع إلى عهود خلت من تاريخ البشرية. إن أي نظام بالمقارنة بالإمامة يبدو في عيونهم رحمة من السماء"[52]. وقد صاغ أحد الظرفاء الهاربين إلى مستعمرة عدن هذه الحقيقة المرة بطريقته الساخرة قائلا: "إذا كان الاستعمار مصيبة فالإمامة مصيبتان".

[51] سيد مصطفى سالم، الحكمة اليمانية وحركة الإصلاح في اليمن، ص. 29.

[52] أبو بكر السقاف، دراسات فكرية وأدبية، ص. 52.

النموذج التقليدي للكتابة

ويمكن اعتبار مؤلفات مُحَمَّد بن مُحَمَّد زبارة النموذج الرسمي للكتابة التقليدية في مملكة الظلام، فقد تولى إعادة كتابة تاريخ الأئمة من الهادي يحيى بن الحسين الرسي حتى الإمام أحمد حميدالدين، وكان أحد الموثوقين عند تشكيل لجنة كتابة التاريخ اليمني في الثلاثينات والمكلف رسميا بالسهر على ألا يخرج أعضاء اللجنة عن السياسة والفهم الرسميين للتاريخ بما يوطد سلطة الطاغية ويدافع عن النظام. وكان بعض المستنيرين الذين تسربوا إلى اللجنة تحت رقابة الأعضاء الأكثر تقليدية حتى لا يخرجوا عن السياسة الرسمية.

وينسج زبارة فيما يكتب على منوال من سبقوه في كتابة التاريخ بأسلوب الحوليات التي تنتقي بعض حوادث سنة معينة تتصل بالإمام وممثليه وأفعاله دون أي تحليل معمَّق للبنى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وما يحيط بالحوادث المذكورة وخلفياتها التاريخية ونتائجها وتفاعلاتها مع غيرها من الحوادث والبنيات والآليات التي انتجتها. كما يتبع أسلوب التراجم التي تركز على جوانب معينة من سيرة من تحرر ترجمته، ولا تهتم بالبيئات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والسياسية التي نشأ فيها الشخص وأثرت فيه وأثر فيها وجعلته ما يبدو عليه وبنت شخصيته وحددت مواقفه وقناعاته، وهو أسلوب يتشابه في القديم والحديث، ولا يقدم سوى القليل من المعلومات التاريخية. لأنها تكتب بطريقة التركيز العمودي على الشخص، مولده وشيء من تعليميه والقليل من أفعاله ونشاطه، وتقدمه مفصولا عما يحيط به من تطورات تاريخية عامة وصراعات وتناقضات واتفاقات على المستوى المحلي والخارجي، وعلاقاته بالناس وبالمجتمع من حوله، والمؤثرات التي ساعدته على النجاح أو جعلت فشله أمرا لا مهرب منه، والقرارات التي اتخذها في حياته، والأخطاء التي ارتكبها وحركة المجتمع الذي فعل فيه أو تأثر به، والثقافة التي تأثر بها وأثرت فيه.

وهكذا كانت تراجم زبارة نصوصا عمودية قائمة بذاتها منفصلة عن بعضها البعض. يورد الاسم والنسب حتى آخر جد معروف، ويذكر من دَرَس عليهم، أحيانا بشيء من المدح وما يصاحبه من مبالغة، وبعض الصفات العامة التي تصلح لكل ترجمة كقوله: "كان عالما

فاضلا ورعا تقيا عابدا بعيدا عن أرباب الدنيا قانعا بما قسمه الله له من الرزق الحلال"[53]، ويضيف إلى ذلك معلومات مقتضبة عن تحركاته، أو عن الأعمال التي تولاها إن وجدت، وما إذا كان قد ذكر بطريقة موجزة في تراجم شعرية أو نثرية سابقة، حتى أن سيرة إمام مثل الهادي شرف الدين بن مُحَمَّد الحسني، وهو الإمام السابق [54]على تولي مُحَمَّد حميدالدين، والد الإمام يحيى، قد أوجزت في أقل من أربع صفحات[55]. وقد يستغرق الجزء الأكبر من الترجمة ما قيل من شعر في مدح صاحب الترجمة وما رد به على من مدحه، إلخ. على سبيل المثال: ترجمة مُحَمَّد بن مُحَمَّد العمراني التي أغلبها شعرٌ قيل فيه أو رد به على من مدحه.[56] ويمضي الكتاب في سرد تراجم منفصلة لمن عاشوا في تلك الفترة دون أن تنتظم كلها في نص تاريخي مندمج متكامل.

وحتى ترجمة الإمام يحيى حميد الدين الذي يسميه زبارة "الفاتح الشهيد" كتبت بأسلوب الحوليات الذي يذكر حوادث كل سنة بمفردها، وأُثقِلَت بالنظم التقليدي بحيث احتوت الصفحات من 3 إلى 22 نحو 241 بيتا من الشعر استغرقت أغلب مساحة الصفحات المذكورة وملأت النص بالنظم والمدح والمجاملات، وصرفته عن التعمق في موضوعه والتوسع في تتبع الحوادث والأحداث والصراعات والتحديات والخلفيات المختلفة حتى ولو بالأسلوب التقليدي للكتابة التاريخية. هذا فقط كمثال، لأن ليس الغرض هنا القيام بدراسة نقدية معمَّقة لهذه المؤلفات ولا لطريقة كتابة التاريخ بأسلوب الحوليات والتراجم.

ويمكن اعتبار كتاب "أئمة اليمن بالقرن الرابع عشر"و كتاب "نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر" خاتمة سلسلة الكتب التي أعاد زبارة فيها صياغة تاريخ اليمن من المنظور

---

[53] محمد بن محمد زبارة، أئمة اليمن، ج1، ص. 4.

[54] من المعيب أن أربع صفحات قد نُزِعت بعد الطبع من كتاب "نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر" لمحمد زبارة الذي طبعه مركز الدراسات والبحوث اليمني سنة 1979، وهي الصفحات التي احتوت على ترجمة متحمسة للطاغية أحمد حميدالدين (الصفحات من 165 إلى 170 منزوعة). وقد كان بالإمكان إما وضع ملاحظة في الهامش تشير إلى وجه الاعتراض على الترجمة، أو كتابة مقدمة نقدية توضح أن المؤرخ التقليدي لم يكن موضوعيا في كتابة هذه الترجمة، أو نشر موضوع مستقل يوضح حقيقة صاحب الترجمة والمآخذ على هذا المدح لحاكم ظالم.

[55] نفسه، ص. 4 . 7.

[56] نفسه، ص. 40 . 45.

التقليدي، وتُمثِّل آخر ما بلغه أسلوب النثر التقليدي من هيمنة على الثقافة السائدة فيما قبل قيام الجمهورية[57].

والواقع أن مُحَمَّد زبارة كان أغزر أعضاء لجنة التاريخ التي شكلها الإمام يحيى حميدالدين لكتابة تاريخ اليمن من وجهة نظر مملكته، إذ لم يترك الأعضاء الآخرون في اللجنة ما يمكن مقارنته بالمؤلفات العديدة التي تركها، والتي وإن كانت قد كتبت بأسلوب تقليدي، فإنها قد قدمت للقارئ المهتم وللباحث في تاريخ اليمن الكثير من المعلومات القيمة التي يمكنه الاستفادة منها والبناء عليها في أي بحث، وتقدِّم مدخلا أوليا للعودة إلى الأصول لكتابة نصوص تاريخية موضوعية عن تاريخ اليمن، أو لكتابة تاريخ اليمن الإسلامي، ولفهم العقلية المنغلقة التي سادت الثقافة التقليدية حتى قيام الجمهورية.

وقد تسربت الأفكار الجديدة والقيم المتحررة إلى اليمن المحاصرة وراء أسوار العزلة والانغلاق عن ثلاثة مصادر:

– سيل المهاجرين اليمنيين الذين أرغمتهم ظروف الفقر والظلم على مغادرة بلادهم إلى كل مكان أمكنهم الوصول إليه في العالم، فاحتكوا بثقافات وأنظمة حكم وقيم وأفكار لم يكن ممكنا أن يظلوا مغلقين في وجهها، وألا يتأثر بها على الأقل بعضهم أو النابهون منهم. ويمكن أن نضيف إلى المغتربين الطلبة اليمنيين الذين إما تم ابتعاثهم للدراسة أو هربوا، من بلد لا يقدم أي فرص للدراسة والحصول على المعارف الحديثة، إلى بلدان عربية وغير عربية وعاد بعضهم وقد تشربوا بمعارف وأفكار واكتسبوا تجارب لا تقبل الجمود الذي تعيشه بلادهم وأثبتوا ألا سبيل لتدجينهم ومسح ذاكرتهم مما علق بها من معارف وأفكار وتجارب وما راودهم من طموحات وآمال الإصلاح والتغيير.

---

[57] الكتب التي ألفها محمد زبارة وأعادت قراءة تاريخ اليمن من وجهة نظر الأئمة:

1. خلاصة المتون في أنباء ونبلاء اليمن الميمون، 4ج،
2. نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف،
3. نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر،
4. أئمة اليمن بالقرن الرابع عشر، 3ج،
5. نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر، 2ج.

– أما المصدر الثاني فقد كان تسريب الصحف والمجلات والكتب عن طريق مستعمرة عدن في الدرجة الأولى، إما بجهود فردية وإما من خلال عمل حثيث منظم كانت حركة الأحرار اليمنيين المعارِضة للاستبداد تقوم به، وتعتبره جزءً من نضالها السياسي وكفاحها المستمر لتحرير شعبها ومساعدته لبناء حياته الجديدة.

– أما المصدر الثالث فهو ما كانت تقوم به نوادي واتحادات المناطق، أو ما أطلق عليها خطأ "الجمعيات القروية"، وهي في الواقع تعاونيات أهلية أسهم بها المجتمع الأهلي في مساعدة بعضه البعض وجعل التعليم والتوعية الثقافية من ضمن نشاطاته، فنقل شيئا من مؤثرات الليبرالية الغربية والحضارة الحديثة على المجتمع العدني إلى أعماق الريف وبخاصة في المناطق القريبة.

ضمور حركة التأليف

وقد أدى جمود الحركة الثقافية وغلبة الثقافة الرسمية التقليدية إلى ضمور ملكة التأليف وندرة انتشار الكتاب وعدم وجود سوق للكتاب الجديد، وكان من الطبيعي أن يندر التأليف بين اليمنيين في ظل غلبة الأمية، وغياب وجود حركة ثقافية متفاعلة ومشجعة، ودون جمهور يستقبل الإنتاج الجديد، ودون تشجيع رسمي لنمو الثقافة. ولذلك لم يُنشَر من الكتب اليمنية في الداخل خلال نحو أربع وأربعين سنة من عمر مملكة الظلام من 1918 إلى حتى قيام الجمهورية عام 1962، إلا القليل النادر، ولم يطبع في الخارج ويسمح له بالتوزيع في الداخل إلا القليل من مؤلفات أنصار النظام والمدافعين عنه. ومع أن بعض المستنيرين كانوا قد كونوا ثقافة تمكنهم من الكتابة، فإنهم لم يجدوا جدوى في الكتابة، واكتفى الشعراء بقرض شعر المدح والهجاء، ولم يتح لهم حرية النشر إلا بعد قيام الجمهورية، ومال الشعراء الذين ينتقدون الاستبداد إلى التخفي وعدم الإفصاح عن إبداعهم خوفا من الانتقام. وحتى الكتابة في مجال التاريخ القديم الذي لا يصطدم مباشرة بالنظام، لم تجد فرصة للنشر والانتشار إلا بعد قيام الجمهورية، مثل كتاب "اليمن، الإنسان والحضارة" لعبدالله الشماحي الذي كان من وجهاء ما قبل الجمهورية والتحق بالجمهورية فور قيامها، وكتاب "اليمن عبر التاريخ" لأحمد حسين شرف الدين الذي طبع سنة 1964 مع مقدمة بقلم عبدالرحمن الإرياني، الذي كان في وقت كتابة هذه المقدمة وزيرا للعدل في الجمهورية وأحد أقطاب المعارضة في الجمهورية الأولى حتى تولى رئاسة الجمهورية الثانية. وحتى سيرة الطاغية يحيى حميدالدين التي كتبها عبدالكريم مطهَّر، رئيس تحرير صحيفة الإيمان الرسمية المسخرة لخدمة الطاغية والدفاع عن نظام حكمه، لم تنشر إلا بعد قيام الجمهورية وبمقدمة لأحد الأمراء الذين كانوا من أعتى من قاوم الجمهورية حتى انتصرت تماما وعُرِف بتورطه بإعداد وتمويل عملية اغتيال أبي الأحرار مُحَمَّد محمود الزبيري في برط في 30 مارس 1965. وقد كُتِبَت هذه المقدمة بأسلوب نثري جمهوري يختلف عن ثقافة النظام الذي أسقطته الجمهورية، وهذا أحد الدلالات على أن الجمهورية قد كانت تحريرا للجميع حتى لأولئك الذين حاربوها.

وقد كان الشباب المستنير داخل مملكة الظلام يبذلون جهودا مضنية للحصول على الكتب والمطبوعات وتدارسها فيما بينهم في جلسات ومقايل قات واجتماعات شبه سرية يقوم القات فيها بدور الحجاب الذي يستر اجتماعاتهم ويمنع الشك في المجتمعين. فقد كان معتادا أن تجتمع كل مجموعة أصدقاء عند أحدهم لتناول القات فيما بعد الظهيرة حتى أول الليل. ويقرأ المتعلمون منهم كتابا ويتناقشون حول موضوعاته. وكان الشباب المستنير وأعضاء الأحزاب القومية واليسارية القليلون والمهددون بخطر القمع الشديد يستغلون هذه العادة ليمارسوا نشاطهم الحزبي، وهي الطريقة التي كان الضباط الأحرار يجتمعون بها دون أن يثيروا ريبة الطاغية وأعوانه، وظلت الأحزاب اليسارية الممنوعة حتى بعد قيام الجمهورية تجتمع بهذه الطريقة وتستخدم جلسات القات للتغطية.

ويصف عبدالعزيز المقالح اجتماعات منتظمة جرت سنة **1957** كأنها اجتماعات حزبية لتدارس بعض الكتب المسرَّبة إلى مملكة الظلام فيقول إنهم كانوا يجتمعون في كوخ يسكنه علي عبدالمغني، حين كان ما يزال طالبا في المدرسة قبل أن يلتحق بالكلية الحربية ويتخرج منها ضابطا في الجيش ويشارك في قيادة تنظيم الضباط الأحرار الذي قام بالثورة وأعلن الجمهورية. يقول: "فقد كنا نجتمع بعد ظهر كل يوم... بالقرب من كوخ أرضي كان يسكنه الصديق الشهيد الملازم علي عبدالمغني وعدد من زملائه قبل أن ينتقلوا إلى الكلية الحربية. وكان الأستاذ العزيز أحمد حسين المروني (الذي يقوم بدور مسئول الخلية الحزبية في النشاط الحزبي) يقوم بتدريسنا بعض الكتب في الفلسفة والتاريخ والأدب، وأذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مبادئ الفلسفة للأستاذين أحمد أمين وزكي نجيب محمود، وقصة الأدب في العالم للأستاذين نفسيهما، ثم بعض كتب الدكتور طه حسين وبخاصة كتاباته عن أبي العلا.... وكنت وزملائي نعاني من صعوبة فهم النظريات الفلسفية حتى تلك التي تتعلق بالأدب ابتداءً من نظرية المُثُل والمحاكاة عند أفلاطون إلى نظريتي التطهير والمنطق الصوري عند أرسطو، مرورا بفكر الكوجيتو[58] عند ديكارت وقوفا عند عشرات الأفكار والنظريات أو النظرات الفلسفية والأدبية المعاصِرة عند سبينوزا وهيجل وهيوم... جاء (علي عبدالمغني) ذات يوم قائلا نريد أن نأخذ اليوم إجازة من الفلسفة ونقرأ في هذا الكتاب، وأخرج من جيبه

[58] هذه عبارة لاتينية Cogito ergo sum وتعبر عن مبدأ انطلق منه ديكارت ويلخص بما يلي (أنا أفكر، إذا أنا موجود) أو (أنا أشك، إذا أنا موجود).

هذه المجموعة القصصية (أنت شيوعي) للأخ صالح الدحان، بدأنا نتخاطفها ونلقي نظرة على العنوان وأخرى على اسم المؤلف"[59]. وهي قصة مهمة تدل على ما كان يوجد لدى الشباب المستنير من شغف بالمعرفة وما كانوا يبذلون من جهود للتزود بها، والحرص على المناقشة في حلقات تَدَارُس يقودها مثقف لديه تجربة معرفية يمكن الاستفادة منها. كما تدل على مقدار المغامرة التي كان طالبو المعرفة يُقدِمون عليها في الحصول على أحدث معارف يمكن أن تتسرب إلى مملكة الظلام. إذ يمكن تصور المخاطرة بتهريب كتاب بعنوان استفزازي مثل "أنت شيوعي" وقراءته وتداوله في تلك الفترة المظلمة حتى لو كان ما يحتويه قصصا قصيرة وليس ترويجا لأفكار سياسية.

[59] مجلة الكلمة، العدد 55 (يناير . فبراير . مارس 1980)، ص 44.